الفصل الثالث

عناصر الحديقة الاسلامية

١- الماء والهندسة المائية

٢- النباتات

٣- الأسوار والجداريات

٤- الزخرفة والأرابيسك والخط العربى

obeikandi.com

لم تكن بيئة الصحراء عقبة أمام استخدام الفراغات المفتوحة لأغراض انتفاعية أو جمالية أو اجتماعية. وكما ذكرنا من قبل فقد تنوعت المناطق الخضراء بين بساتين مفتوحة وحدائق محوطة بأسوار أو صحون محوطة ببيوت وقصور. وبالرغم من هذا التنوع فى أصناف هذه المناطق الخضراء، إلا أنها تميزت دائمًا ببراعة باهرة فى تكوينها الفنى، وقدرة ملحوظة على التعامل مع البيئة المحيطة، ومهارة فائقة فى اختيار العناصر وتقرير موقع كل منها على الأرض وتحديد علاقته بالعناصر الأخرى. وكما هو معروف فنيًّا فإن معايير النجاح لأى تصميم ـ سواء كان حديقة أو مبنى معماريًّا أو حيًّا عمرانيًّا بكامله ـ لا تتغير، وتشمل دائمًا الفوائد الانتفاعية والمتعة الجمالية والقدرة على التكيف مع البيئة الطبيعية المحيطة. وبناءً على مثل هذه المعايير الأساسية لمبادئ التصميم، فإنه من الممكن الحكم على الكثير من الحدائق الإسلامية التاريخية بأنها قد استطاعت أن تتحدى حاجز الزمان والمكان، وظلت عبر السنين نموذجًا لنجاح التصميم من خلال عناصرها الفنية التى شملت العديد من الفنون الجميلة، وخاطبت شتى حواس ومشاعر الإنسان. وتشمل هذه العناصر جوانب أساسية كجمال منظومة العمل الفنى، ونوعية الفراغ، وطبيعة شكله، وملمسه، ونسيجه، وإضاءته، وديناميكية الحركة فيه.

أما من حيث التكيف مع البيئة المحيطة وترويض الطبيعة وملامسة النفوس البشرية، فقد أعطت الحديقة الإسلامية لزائرها الكثير من المتع الحسية كمشاهدة ألوان الزهور والورود، وسماع تغريد الطيور والعصافير ،والاستراحة فى الظل الظليل، واستنشاق الروائح الفيحاء، ورؤية جمال الأفق لحظات الشروق والغروب، كما كانت مصدرًا للتأملات الروحية عندما يأتى الربيع ويشع الأمل فى القلوب، وعندما يزحف الخريف أو تهب رياح الشتاء الباردة، وتعم الأشجار الخالية من الأوراق والزهور فيتذكر المرء دورة الحياة والموت، ولا عجب إذًا أن الحدائق والبساتين كانت دائمًا مصدر وحى وإلهام للكثير من شعراء وأدباء العصور المزدهرة للإسلام، وخاصة الذين كانوا قريبين

من بلاط الأمراء وأغنياء المجتمع ممن أنشأوا مثل هذه الأماكن الخضراء كجزء من دورهم وقصورهم.

ولذا يرجع الفضل فى تخيل الصورة الذهنية لحدائق دولة الأندلس ـ على سبيل المثال ـ التى انقرضت أو انطمست معالمها إلى وجود مخطوطات تاريخية احتوت على قصائد ورسائل وتواشيح من هذه الحقبة الزمنية تصف أو تتغزل فى بعض هذه الحدائق، وقد اعتمد بعض الباحثين فى تاريخ الفنون الإسلامية على هذه الأعمال الأدبية اعتمادًا كبيرًا لتدوين وتحليل وشرح هذه الحدائق فى دراستهم عن فنون الإسلام. أما من حيث العناصر الانتفاعية التقليدية فى تصميم البستان أو الحديقة أو الصحن، فقد شملت أربعة عناصر أساسية وهى:

* الماء والهندسة المائية.
* النباتات.
* الأسوار والجداريات.
* الزخرفة والأرابيسك والخط العربى.

١- الماء والهندسة المائية

يعتبر استخدام الماء كعنصر أساسى فى تصميم الفراغات الخارجية من أهم مميزات الحديقة الإسلامية فى الفترة المزدهرة من تاريخ الدولة الإسلامية وعلى سبيل المثال:

(أ) كان استخدام الماء فى نافورات بصحن الدار وسيلة لترطيب الجو وتنقيته من الأتربة فى الوقت نفسه.

(ب) وكان استخدامه فى الميادين العامة والمساجد لأغراض انتفاعية كالشرب، والوضوء، وري الأشجار.

(ج) وفى بعض الأمثلة، استخدم الماء لأغراض جمالية تتعلق بتصميم الموقع مثل تأكيد أهمية بعض المبانى الرئيسية وضخامتها بانعكاس واجهتها على سطح الماء، أو اجتذاب الطيور والعصافير بما لها من أصوات جميلة تضيف إلى روعة المكان حركة وحياة.

بستان شالامار

تنوعت أشكال النافورات والمسقيات فى حدائق المغول الاسلامية، ولكن استعمال حركة المياه المتساقطة على مصاطب متعددة الارتفاع تعتبر ابرع اضافاتهم الفنية لحقل تصميم الحدائق.

(د) أما استعمال الماء خلال النافورات، فقد كان أيضًا مفيدًا لعدة أغراض منها إضافة حركة مشوقة فى وسط فراغات قد يسودها الصمت والجمود إذا تركت خاوية بدون معالجة ذكية وجذابة، كالذى نراه فى قصر الحمراء بغرناطة مثلًا.

(هـ) أما الشلالات الصغيرة والماء المتدفق من مستويات مختلفة، فقد استعمل صوت خريره كقناع للضوضاء الصادرة من الطرق العامة المحيطة.

والشاهد أن العناصر المائية تنوعت فى أشكالها واستعمالاتها خلال عصور ازدهار الإسلام لدرجة أنه أصبح من الصعب على الزائر أن يستمتع بمشاهدة أى جزء من أجزاء الحديقة دون أن يقع نظره على عنصر مائى أو يسمع خرير قطرات مياه. وشملت هذه العناصر الينابيع والآبار والجداول والعيون والقنوات، والفسقيات والنافورات والأحواض والبرك والأسبلة، وقد زاد على هذه الحصيلة نوع جديد من النافورات عندما استعمل للمرة الأولى فى حدائق جنات العريف بمدينة غرناطة الأندلسية، وهى نافورة القبة المائية أو «النافورة النفاثة ـ Jet Fountain».

نافورة جنات العريف

كان استعمال الماء من خلال النافورات وسيلة ذكية لإضافة حركة مشوقة للفراغات أو لتوفير قناع للضوضاء الصادرة عن الطرق والأسواق المحيطة.

نافورة صحن الأسود

ساعد استخدام نافورات المياه فى صحن الدور والقصور على ترطيب الهواء وتنقيته من الأتربة. وفى قلعة الحمراء، تتحرك المياه خلال أجنحة القصر على شكل قنوات تجرى تحت الممرات، وتتدفق إلى أحواض فى الغرفات قبل عودتها إلى الصحن الخارجى.

أما البساتين المفتوحة والمتنزهات العامة والحقول الزراعية، فقد ضمت عناصر مائية أخرى كالسدود والقناطر والسواقى والصهاريج، التى أضافت لمثل هذه الأماكن المفتوحة علامات معمارية خاصة تعطى لكل منها شخصية متميزة. والمعروف تاريخيًّا أن عنصر النافورات بشكل خاص كان رمزًا معروفًا ومتفقًا عليه بين مسلمى الأندلس على عصور الرخاء وفترات السعة لأهل هذه المدن.

وعمومًا، فقد بلغ علم الهندسة المائية عند المسلمين والعرب فى عصور الازدهار درجة متقدمة من التطور، حتى أصبح الماء هو العنصر الأساسى فى الحدائق والبساتين، فهو متوفر دائمًا وفى أشكال متعددة فيها الكثير من الابتكار، فقد صممت القنوات المائية بحيث تخترق الرياض المختلفة فى كل حديقة أو بستان، ولا يقتصر دور الماء فى الحديقة الخارجية فقط، بل يتحرك خلال الغرف وأجنحة المبنى على شكل جداول صغيرة تجرى فى أنابيب أو مواسير تحت ممرات القصر، حتى تتدفق إلى الأحواض الموجودة فى القاعات أو تندفع تحت الأروقة ومنها تعود إلى حديقة الصحن.

وقد تنوعت أشكال النافورات، ففى جنات العريف نجد أن المياه ترتفع من عدة نافورات على جوانب بركة وسطى لتلتقى فى شكل أقواس كأنها قناطر تتلألأ تحت وهج شمس الأندلس، ويعرف هذا التشكيل بالقباب المائية. وفى مثال آخر، نجد أن حركة المياه تنتج من نافورة يتساقط ماؤها على مصاطب مختلفة الارتفاعات كأنها درج، ويسيل الماء من أعلى إلى أسفل عند كل فسحة درج، بينما فى تصميم آخر نجد أن الفنان قد استخدم درابزين مجوّفا عند كل مسكب للمياه؛ مما يسمح للمياه أن تتدفق بسرعة لتجرى بعد ذلك فى الهواء الطلق وتتساقط فى قنوات من القرميد المجوف، ويجب الإشارة هنا إلى أنه بالرغم من الاستعمالات الكثيرة للمياه وتنوع عناصرها فى أغلب الحدائق الإسلامية إلا أن الالتزام بالاقتصاد فى استخدام الماء كان شيئًا ملحوظًا ومفهومًا ومتفقًا عليه، وينبع من توجيهات واضحة فى القرآن والسنة النبوية بهذا الشأن، فالماء مصدر الحياة فى الدنيا، وضرورة أساسية لأركان الإسلام وعبادته، مثل الوضوء والطهارة وغسل الميت والتنظيف من كل نجاسة .

٢- النباتات

لعله من النادر فعلًا أن نجد وعيًا واسعًا بعلم النبات من جهة، وتطبيق قواعد هذا العلم على فن تصميم الحدائق والبساتين من جهة أخرى فى أى حقبة تاريخية، كما وجدناها فى عصور الدولة الإسلامية فى بغداد والأندلس ودولة المغول فى شبه القارة الهندية.

وعلى سبيل المثال، فعندما يتصفح المؤرخ مختلف الكتب والدراسات التى بحثت وحللت أحوال الزراعة والنبات فى بلاد الأندلس ما بين القرنين التاسع والخامس عشر، فيمكنه أن يستشف بوضوح ما نال هذين العلمين من عناية بالغة، وما وصلت إليه البحوث والتجارب الزراعية والنباتية من مستوى رفيع، ويقول المستشرق الألمانى «ماكس مايرهوف ـ Max Meyerhoff» فى هذا الصدد:

> «لقد كانت البذور تجلب من الشرقين الأدنى والأوسط؛ حيث تجرى عليهما التجارب التطبيقية قبل زراعتها، وكانت تقارن الأصناف المختلفة من النبات الواحد وتدرس خصائصها الزراعية الطبية والبيئية».

والواقع أن اهتمام المؤلفين المسلمين بعلم النبات قد بدأ فى القرن التاسع الميلادى حينما وضعوا هيكلًا لمصنفاتهم باللغة العربية فى سائر العلوم والفنون بعد قيام الدولة العباسية فى بغداد، ويعتقد المؤرخون أن الرعيل الأول من المؤلفين فى هذا العلم كان يضم علماء مثل:

* عبد الملك بن عبد العزيز البصرى، المتوفى عام ١٤٠ هـ ومؤلفه الشهير (النبات).
* ربيع بن صبح، المتوفى عام ١٦٠ هـ.
* جابر بن حيان، المتوفى عام ٨٠٣ هـ ومؤلف «رسائل فى علم النبات والفلاحة».
* ابن ليون، المتوفى عام ١٢٨٢م ومؤلف كتاب «إبداع الملاحة وإنهاء الرجاحة فى أصول صناعة الفلاحة».

ومن الطريف أنه حتى علماء اللغة العربية فى عصور الإسلام الأولى اهتموا بالنباتات وجمعوا معلومات عن أشكالها وخواصها ومن بين هؤلاء:

* الخليل بن أحمد الفراهيدى، المتوفى عام ١٨٠ هـ.

* أبو زيد الأنصارى، المتوفى عام ٢١٥ هـ.

* ابن السكيت، المتوفى عام ٢٤٣ هـ.

* الأصمعى الذى ألف كتاب «النبات والشجر» والمتوفى فى عام ٨٢٨م.

* على بن ربان الطبرى، المتوفى عام ٢٤٥ هـ، ومؤلف كتاب «فردوس الحكمة».

* أبو حنيفة الدينورى، المتوفى عام ٢٨٢ هـ، ومؤلف الموسوعة المشهورة «كتاب النبات» الذى تميز بدقة وصفه لكل أنواع النباتات المعروفة، وقد بقى بعض أجزاء منه حتى الآن فى المكتبات التاريخية.

وساهم أيضًا المفكرون العرب خلال القرن الرابع للهجرة فى الإضافة لعلوم النباتات؛ حيث خصص إخوان الصفا إحدى رسائلهم لوصف النباتات وذكر أنواعها، ومن خلال تأملات فلسفية تعرضوا للأعداد الرمزية لأجزائها. أما ابن سينا، فقد عالج فى كتابه «الشفاء» من خلال عرضه فى قسم الفن السابع من الطبيعيات موضوع أنواع النباتات من الناحية العلمية والفلسفية.

ولعل أهم المؤلفين من وجهة نظر أهداف كتابنا هذا عن تصميم الحديقة الإسلامية هو رشيد الدين الصورى، المتوفى فى الأندلس عام ٦٣٩ هـ، وقد أشار إليه بإسهاب أحد كتب التراث الأندلسى، الذى ألفه أبو القاسم الوزير، والسبب الأول والأساسى وراء هذا الاقتناع أن الصورى هو أول من اعتنى بتدوين وتوثيق وتوصيف التكوينات الجمالية لكل نبات عبر الفصول الأربعة من حيث الشكل والملمس والألوان، وقد ابتكر لدراسته هذه التى تعتمد على دقة الملاحظة وحسن المعاينة لكل فصائل النباتات منهجًا خاصًّا ليساعده على جمع المعلومات وتدوينها، فقد كان يستصحب معه فنانًا يجيد الرسم ومزوّدا بالأصباغ على اختلاف أنواعها، ويزور الأماكن التى تكثر فيها النباتات ليشاهدها ويحققها ثم يريها للرسام طالبًا منه تقدير لونها ومحاكاة أوراقها وأغصانها. وقد قام الصورى بتكرار هذه الزيارات مع مساعديه من فنانين ورسامين؛ كى يسجلوا كل نبات وإنتاج صور له فى أثناء طراوته فى الربيع ووقت نضوجه فى الصيف وفى أثناء يبسه فى الخريف ثم الشتاء.

وقد نتج عن هذه الدراسة أرشيف هائل من الصور التى تمكن الدارسين من تحقيق وتمييز أى نبات يرونه فى أى بقعة جغرافية، وخلال أى فصل من فصول السنة الأربعة.

وبالرغم من الوسائل العلمية الحديثة مثل Palynology قد تساعد على التعرف الدقيق على أنواع النباتات التى استخدمت فى الماضى بكل حديقة من الحدائق الإسلامية التاريخية، إلا أنه يبقى دائمًا الاحتياج الأكبر لموهبة التخيل لتصور التكوين المرئى العام، وإلى الاعتماد على الوصف المدون فى الكتب التاريخية وأدبيات الرحالة المشهورين.

ويستطيع الباحث المدقق أن يجد كثيرًا من المعلومات عن النباتات المستعملة فى زمن إنشاء الحدائق الإسلامية الشهيرة من خلال تراجم معاصريها، فمثلًا فى مذكرات أول أباطرة الدولة المغولية الإسلامية «بابور ـ Babur» نجد ذكرًا مفصلًا عن الحدائق التى أنشأها فى عهده بكشمير وأجرا، وفى مذكراته نجد أيضًا رسومًا توضيحية لأنواع الأشجار والزهور والأعشاب المستعملة فى هذه الحدائق مع تخطيط عام للموقع.

ويبدو واضحًا أنه اعتنى عناية خاصة بأشجار الفواكه كالبرتقال وكروم العنب؛ لفوائدها الغذائية ولأنها تضيف عبقًا عطرًا للهواء المحيط بالدور والقصور والضياع الملحقة بها، هذا إلى جانب أنها تجذب أنواعًا معينة من الطيور التى تضيف بأصواتها المطربة أنغامًا يسعد بها أهل الدار وجيرانهم والعابرون على السواء.

كما يشير بعض مؤرخى الفنون الإسلامية من المستشرقين إلى أن أحد أهم مصادر التعرف على أشكال ومميزات الحديقة الإسلامية فى الأندلس اللوحات والرسومات التى يحويها المخطوط التاريخى الشهير «بياد ورياض» والمحفوظ حاليًا فى مكتبة الفاتيكان فى روما، وكل هذه اللوحات من الرسومات المصغرة جدًا Minature.

وعمومًا فمن الممكن القول إن لدينا اليوم كمًا هائلًا من المعلومات عن أنواع استعمالات النباتات فى الحدائق الإسلامية التاريخية من خلال جداول الزراعة، وبحوث النباتات، وكتيبات دليل الفلاحة للمحاصيل المختلفة فى الدولة الإسلامية بالأندلس فى الفترة ما بين القرن العاشر إلى نهاية القرن الرابع عشر. وقد كانت هذه المنشورات متداولة بين كبار ملاك الأراضى وأفراد العائلات الحاكمة والأمراء وفئة العلماء وموظفى البلاط الملكى وغيرهم من أعضاء الطبقة الأرستقراطية فى الأندلس. ولعل إنشاء الحدائق النباتية أو ما يسمى الآن «Botanical Garden» قد بدأ فى العصور الإسلامية بأسبانيا، فقد أنشأ الأمير المأمون الأندلسى فى القرن الحادى عشر حديقة نباتية جامعة على ضفاف نهر التاجه بالقرب من مدينة «أشبيلية ـ Seville».

وقد عهد الأمير برعاية هذه الحديقة إلى الطبيب وعالم النباتات المشهور ابن وافد. وقد قام ابن وافد بجلب النباتات من أنحاء العالم لغرسها ودراسة فوائدها الطبية والاقتصادية، وقد عرفت هذه الحديقة ببستان الناعورة. ومن العناصر المثيرة للانتباه القبة المائية الكبيرة التى تم إنشاؤها فى هذا البستان، ومنها تتوزع المياه إلى أنحاء الحديقة حتى تصل لقصر الأمير المأمون فى منتصف الأرض.

ويجب الإشارة إلى أن البحث العلمى العربى الأول الذى تطرق لعلوم الزراعة والنبات بطريقة منهجية هو كتاب «الأزمنة» للفيزيائى يوحنا بن مسكويه الذى أعقبه تلميذه حنين بن إسحق. وفى بداية القرن العاشر، انتشرت كتابات أحمد بن أبى بكر ابن وحشية عن الفلاحة فى الحضارة النبطية، وقد جمعها تلميذه أحمد بن الزيات فى مرجع ملخص ووافٍ. ومن بداية القرن العاشر حتى نهاية القرن الخامس عشر، تبلورت الطفرة فى البحوث والدراسات الحدائقية عبر بلاد الأندلس فنشر كتاب «الفلاحة» لأبى زكريا بن عوام، الذى يتألف من ٣٥ فصلًا استعرض فيها ٥٨٥ نباتًا بما فيها ٥٥ من الأشجار المثمرة، كما تزامن ذلك مع نشر كتاب «الصيدلة الزراعية وطب النباتات» بقلم ابن البيطرى. وتعاقبت بعد ذلك المؤلفات مثل «بغية الفلاحة فى الأشجار المثمرة والرياض» للعباس بن على، ويلقى الأضواء فيه على الزراعة فى بلاد اليمن، وكتاب «الأخبار والأعطار» للوزير الفارسى رشيد فضل الله، ويشرح التقاليد الزراعية لبلاد فارس، وأيضًا كتاب «مباهج الفكر» للباحث جمال الدين المكتبى، الذى شرح فيه قواعد علم التربة.

ونعتقد أن هذه الطفرة المعلوماتية الواضحة فى التأليف والنشر فى علوم النبات والحدائق وكافة حقول المعرفة والفنون الأخرى كان لها علاقة وثيقة باستجلاب صناعة الورق فى القرون الأولى من الفتح الإسلامى لبلاد شرق آسيا، ومن المعروف أن هذه الصناعة قد دخلت بلاد الأندلس فى بداية القرن العاشر، ولا شك أن هذا كان أحد الأسباب المهمة التى مكنت الأمير الحكم من إنشاء مكتبته الضخمة التى يقال: إن فهرس محتوياتها وصل إلى ٨٨٠ صفحة.

وبتطور صناعة الكتب، أصبح من السهل تجديد وتنقيح جداول الزراعة وأبحاث النباتات ودلائل وإرشادات تقنية الفلاحة.

وبالرغم من أن الابتكارات والتقنيات التى استخدمت فى الزراعة وإنشاء الحدائق فى الأندلس كان الكثير منها معروفًا للحضارات السابقة إلا أنه من الواضح أن الفتح الإسلامى لأسبانيا أدى إلى تحولات ضخمة وجذرية فى قطاع الزراعة واقتصاديات الريف، ويرجع ذلك إلى دقة وكفاءة مجموعة الحوافز والقوانين التى أصدرتها دار الحسبة لتنظيم الدولة الإسلامية واستعمالات الأراضى بها، وشمل ذلك تدوير المحاصيل والرى والتسميد والاسترزاع والتهجين. كما تجدر الإشارة إلى أن حقل تصميم الحدائق والبساتين بصفة خاصة، وعلم النبات بشكل خاص كان لهما تأثير أبعد بكثير من اختيار أنواع الأشجار والزهور فى الحديقة الإسلامية؛ حيث يلاحظ أى باحث مدقق فى الفنون الإسلامية أن الحديقة تمثل دائمًا النموذج المفضل للتكوينات المرئية فى الفنون الأخرى كالرسم، والنحت، والخط العربى، وطباعة النسيج، وصناعة السجاد العجمى الشهير، ومن خلال هذا الإطار تتضح أهمية مؤلفات مثل ما كتبه رشيد الدين الصورى وأبو القاسم الوزير لاحتوائها على لوحات تصويرية للأشجار والزهور والمتسلقات النباتية المستعملة فى هذه العصور.

ويتفق مهندسو عمارة البيئة اليوم على أن استعمال النباتات فى أى موقع سواء كان سكنيًا أم عامًا يجب أن يشمل أغراضًا انتفاعية، أو معمارية، أو مناخية، أو جمالية، وعلى سبيل المثال فلثمار الفاكهة التى تنتجها البساتين قيمتها الغذائية، والكثير من الأزهار لها خواص طبية وعطرية. أما من جهة الأغراض المناخيه فأشجار الحدائق والبساتين تعد رئة التنفس للمواقع المحيطة بها لقيامها بتحويل ثانى أكسيد الكربون إلى الأوكسجين، وتخفيض تلوث البيئة، وتقليل سرعة الرياح المحملة بالأتربة والرمال، وتوفير أماكن الظل المحمية من حرارة الشمس.

وما تبقى من الحدائق الإسلامية التاريخية يؤكد نجاح الكثير من هذه الأمثلة من ناحية معالجة المناخ المحلى، فقد استعمل مصمم الحدائق «أشجار السرو ـ Cypress tree» حول حدود الحديقة كدرع واقية ضد العواصف الرملية طول العام. ونظرًا لجفاف الهواء المتسرب من خلال هذا الصف الأول من النباتات، أضاف المصمم صفًا آخر من «أشجار الحور البيض ـ Popler tree» لترطيب الموقع، وبواسطة هذين الصفين المحيطين بالحديقة، اللذين يبلغان حوالى ٣٠ مترًا فى الارتفاع تمتع الموقع فى أغلب ساعات النهار بظل وحماية من أشعة الشمس الحارقة التى تسبب مشاكل جمة للإنسان والنبات على السواء.

ومن المعروف أن المسجد الجامع بمدينة قرطبة بالأندلس قد تمت زراعة الأشجار فى صحنه منذ القرن التاسع. ورغم صعوبة التخمين أهل كان بدافع انتفاعى كالتحكم فى أشعة الشمس وتوفير المناطق الظليلة لجموع المسلمين خاصة أثناء صلاة الجمعة وصلوات الظهر والعصر، أو بدافع روحى كرمز من رموز وعناصر جنات الخلد؟

وعموما فمن الواجب أن نشير إلى أن علماء الشريعة آنذاك اختلفوا فيما إذا كانت زراعة الأشجار فى صحن المسجد شيئًا مستحبًّا أو مكروهًا أو مباحًا حسب الشريعة الإسلامية، وبصرف النظر عن مثل هذا الاختلاف الفقهى فلا شك أن إدخال الخضرة لبيوت الله قد هيج قريحة بعض شعراء القرن العشرين مثل الشاعر الباكستانى محمد إقبال فى قصيدة سماها «مسجد قرطبة» حين قال:

كنخيل الشام وأعمدته ... شمخت فى المسجد أعمدة

تتألق زرقة قبته ... وتقيم الليل وتقعده

وهكذا نجد شاعرنا يحلم بالأشجار والنخيل حتى وهو يسترجع عناصر إنشائية كأعمدة المسجد، فومضات الحديقة الإسلامية مترسبة فى قلوب المؤمنين كنفحات من الجمال الذى يلمس النفوس ويطهر الأرواح ويبعث الأمل فى اليوم الموعود.

ويبرز فى هذا المجال شيوخ وشعراء الصوفية المرموقون مثل محى الدين بن عربى الذى يعتبره كثير من مؤرخى الفلسفة والأدب فريد عصره ووحيد زمانه؛ نظرًا لفكره العميق وخياله المبدع، الذى يظهر ساطعًا ومتوهجًا فى شرحه لقول الله تعالى:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤]

وإذ يفسر ابن عربى هذه الشجرة بأنها الكلمة الطيبة وهى كلمة التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، هى شجرة نافعة ومثمرة فى الحياة الدنيا والآخرة مثلها كمثل الشجرة المثمرة الثمار الطيبة. وهى كلمة طيبة كالشجرة الطيبة شجرة النبوة والإيمان والخير. وأما الشجرة الخبيثة، فهى شجرة الجاهلية والباطل والتكذيب والشر والطغيان، ومن خلال تأملات ابن عربى نجد أنه أخذ عنصر الشجرة وألقى عليها ظلالًا قرآنية، وفكرته واسعة أدخلتنا جميعًا فى رحاب روحية طليقة من حدود الزمان والمكان.

Plant Name	اسم النبات
Myrtle	**الريحان**
Jasmins	الياسمين
Wild Jasmins	**الزيان**
Violet	البنفسج
Red rose	**الورد**
White Lily	السوسن
Almond Blosson	**نوار اللوز**
Pamegrante Blosson	نوار الرمان
Orang Blosson	**الزهر**
Carntion	القرنفل
Mint	**النعناع**
Saffron	الزعفران
Lemon	**الليمون**
Plum	الخوخ
Mulberry	**التوت**
Carob	الخروب
Apricot	**المشمش**
Peach	خوخ الدراق
Palm Tree	**النخيل**
Willow Tree	الصفصاف
Cypress Tree	**السرو**
Poplar Tree	الجوز
Grape Vine	**كرمة عنب**
Grove Hedge	أيكة
Box Hedge	**شجيرة البقس**
Magnolia Tree	المغنولية
Orange Tree	**البرتقال**
Citrus Tree	أشجار الفاكهة الحمضية
Tall Juniper	**متسلق العرعر**
Acacia	السنط
Olive Tree	**الزيتون**
Quercus	البلوط
Populus Poplar	**الصنوبر**
Buxus Boxwood	الشمشار
Papaver Poppy	**الخشخاش**
Iris	الزنبق
Liquidamber (Sweet Gum)	**العنبر السائل**

obeikan.com

وأخيرًا، فمن اللازم التنويه بأن الكثير من فصائل النباتات التى استخدمت فى الحدائق الإسلامية التاريخية ما زالت متداولة حتى اليوم وتستعمل فى كثير من المشروعات، وهى مدونة بالجدول السابق باللغة العربية واللغة الإنجليزية حتى يتسنى للقارئ تقدير الإنجازات العلمية للحضارة الإسلامية فى عصور ازدهارها، بعكس ما نعرفه الآن فى القرن الواحد والعشرين من تراجع فى مؤسسات التعليم وإنجازات البحث العلمى فى أغلب البلاد العربية.

٣- الأسوار والجداريات

بالرغم من أن الماء والنبات يعتبران أهم عنصرين فى الحديقة الإسلامية من حيث الجهد المبذول فى تصميم وصيانة مكوناتهما، إلا أن الأسوار والجدران المحيطة هى فى الواقع أكثر المكونات المعمارية تأثيرًا على طبيعة التكوين المرئى للحديقة، وعلى العلاقة بين الداخل والخارج، والتناسب بين المساحات والكتل المعمارية فى الفراغ، وعلى الخواص المناخية للحديقة من حيث مساحة المناطق المظللة وطبيعة الإضاءة، ومدى الحماية من الرياح والضوضاء والتلوث الناجم عن البيئة المحيطة بالحديقة أو البستان، وعمومًا فقد أعطت هذه الأسوار كل مستعمل الخصوصية والحماية من صخب وتلوث البيئة العمرانية المحيطة وضوضاء وأتربة الطرق العامة المحيطة بداره، وبالداخل توصل المسلم من خلال هذه الحديقة إلى متعة حسية بهيجة لمست أرق مشاعره كنتيجة لسيمفونية الألوان والأشكال وعطر الورود والأزهار وروعة الأشجار والمياه التى احتضنتها غرفات وقاعات قصره أو دار عائلته.

ويلاحظ فى أكثر من مثال أنه بالرغم من بساطة بل وخشونة الجدران الخارجية للقصر أو الحصن، فإن السور نفسه أو الجدار كان يعالج معالجة جمالية متميزة من الداخل، بل ويكاد يتحول إلى متحف فنى أو معرض للزخرفة والنحت وشتى أنواع الفنون الإسلامية الأخرى، التى يطلق عليها الآن النقاد والأكاديميون الأرابيسك. ويفسر بعض النقاد هذا التفاوت الملحوظ بين بساطة الجدران الخارجية وزخرفة الجدران الداخلية على أنها رمز لتعاليم الإسلام بالتواضع مع الناس من جانب، وتطهير النفس وإثراء الروح فى داخل كل إنسان.

٤- الزخرفة والأرابيسك والخط العربى

ظهرت فنون الأرابيسك التى تضم الزخرفة الإسلامية، والخزف، وتشكيلات التبليط بالطوب والحجارة، والفسيفساء، وصناعة الأثاث الخشبى والمعدنى، وأوانى الطعام، وكذلك استخدام طلاء الجص لتزيين الجدران والأسقف والقباب من الداخل والخارج منذ صدر الإسلام؛ حيث كان هناك حساسية شديدة وتردد مفرط أمام تزيين المساجد، أو محاولة تصوير البشر أو الانخراط فى فنون النحت وإنتاج التماثيل. وكانت هذه الحساسية شيئًا مفهومًا من مجتمع حارب الوثنية وعانى الكثير حتى تغلب على فساد العقيدة ومحا رموزها من ثقافة قومه. ولكن بمرور الوقت وبعد إرساء القواعد الدينية القوية، أصبح هذا التردد شيئًا من الماضى وهاجسًا لا محل له فى عقول أهل إمبراطورية الإسلام الصاعدة، وكان هذا منعطفًا تاريخيًّا، إذ تفجرت بعده عبقرية الفنانين المسلمين وما لهم من إرث فى علوم الرياضيات سمح لهم بإنتاج طراز مبتكر من الزخرفة الهندسية (الأرابيسك) التى شملت شتى أنواع الفنون الجميلة والتشكيلية، ولعب فيها الخط العربى بالذات دورًا رئيسيًّا.

ويجب هنا الإشارة إلى أن الهدف الرئيسى لمثل هذه التكوينات الفنية المبتكرة ـ أو ما يسمى بالنسيج الهندسى للزخرفة الإسلامية ـ هو تحوير العنصر المادى حتى يفقد تدريجيًّا كثافته وثقله وتفاصيله ويصل إلى فكرة تجريدية يمكن نقشها على الجدران والقباب، كما يسهل رسمها فى تبليطات الأرضيات أو زخرفة الكتب والمخطوطات أو تزيين أثاث القصور.

كما لعب فن الخط العربى دورًا متميزًا فى سيمفونية الحدائق والعمارة الإسلامية، فمثلًا نجد فى مبنى صحن السفراء بالغرفة الوسطى حيث يجلس السلطان لوحة مكتوبًا عليها سورة الملك كاملة (سورة ٦٧) وخلفها بانوراما جبال غرناطة وخط الأفق.

اعتبارًا لقداسة اللغة العربية فى ذهن المسلم، ونظرًا لكونها لغة القرآن الكريم ولسان رسول الله ﷺ ولغة أهل الجنة، أصبح فن الخط العربى جزءًا لا يتجزأ من تصميم الحديقة الإسلامية كما هو الحال فى فن العمارة الإسلامية بشكل عام؛ ولذا فإننا نجد هذا ملحوظًا فى زخرفة الجدران والأسوار والعقود، والبوابات، والأرضيات، والفقيات، والنافورات، والتبليطات، والخيام والمظلات، والتكعيبات والأكشاك. ومن الملحوظ فى حدائق الأندلس وقصر الحمراء بالذات مساهمة الكثير من الشعراء فى ملصقات وجداريات

القصر، وقد كان أهمهم هو ابن الجياب (١٢٧٤ - ١٣٤٨) الذى كتب تسع قصائد إلى جانب ابن الخطيب وتلميذه المشهور بغزارة إنتاجه الأدبى ابن زمرك.

وعمومًا فالحوار بين عناصر المبنى المعمارى والقصائد المنحوتة على جدران القصر تمثل سيمفونية جميلة من التناغم والحوار الحالم بين فن العمارة وفن الشعر.

ورغم ذلك تظل الآية القرآنية الكريمة ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] هى اللازمة المتكررة من جدار إلى جدار، ومن عامود إلى عامود، ومن عقد إلى عقد فى أنحاء غرف وقاعات قصر الحمراء الداخلية وحدائق ورياض الحصن الخارجية لتذكير أهل القصر وزواره بالهدف الأسمى فى حياة المسلم، وهو العمل أن تكون كلمة الله هى العليا فى الأرض، وهكذا فهى تلعب فنيًّا وفكريًّا دور الجملة اللحنية الأساسية Melody فى المعزوفة الموسيقية الكبرى.

ورغم محدودية الأثاث والمفروشات التى استخدمت داخل الخيام والأكشاك والمقصورات والشرفات التى تطل على الحدائق والبساتين، فإنه من المهم إلقاء نظرة عليها ولو عامة. من الواضح للباحث فى فنون صناعة الأثاث والمفروشات المستعملة فى الحدائق أن الأصول البدوية لكثير من الملوك والأمراء فى صدر الإسلام قد أثرت فى طبيعة ونوعية الأثاث والمصنوعات، وعلى سبيل المثال تفتقر هذه القصور لقطع الأثاث الضخمة، وتتميز فقط بالوسادات والسجاد والأبسطة، ومن المناسب هنا أيضًا أن نلقى الضوء على «صحن الأسود ـ Court of Lions» بقصر الحمراء بمدينة غرناطة إذ إنه من الأمثلة النادرة التى استعملت فيها التماثيل داخل الحديقة الإسلامية، وتعتقد مؤرخة عمارة البيئة «رجلز ـ Ruggles» أن هذه التماثيل لها علاقة رمزية بالنبى سليمان ـ عليه السلام ـ الذى ذكره القرآن بأن الله أعطاه حكمًا وملكًا لم يعطه لأحد من خلقه؛ ولذا فقد حفلت أدبيات هذا العصر من دولة الأندلس بتشبيه الأمير محمد بن الأحمر به؛ حيث كان مشهورًا بعدله وقوته وسيادته على أراضى مملكته فى الأندلس.

ولا شك أن تأثير الجالية اليهودية الكبيرة فى غرناطة قد يكون وراء هذه التماثيل، فالفلكلور اليهودى حافل بالمدح والتمجيد لعصر النبى سليمان ـ عليه السلام ـ على أنه العصر الذهبى لمملكة اليهود عبر العصور.